يفكرون جديا ببدء العمل من اجل انقاذ فلسطين فهـــؤلاء « لم يكونوا طبقيا او وعيا مختلفين كيفيا عن قيادة الحركة الوطنية » · فهم من طبقة « الزعامـــات والوجاهات » ومن قادة الحركة الوطنية ، وكل ما يميزهم عن غيرهـــم شهاداتهم ، فلم يستطيعوا ان يغيروا شيئا من ظروف الحركة الوطنية ص ١٥١ ·

ويبين الكاتب في ثنايا هذه المساومات ان الانكليز ما كانوا ينظرون الى افراد هذه الطبقة بتقدير واحترام، بل يظهرون الاستهانة بهم ، لمعرفتهم العميقة الدقيقة بطبيعتهم وجبنهم · بالاضافة الى ذلك كانت هذه الطبقة قليلة الوعي ضيقة الافق، متخلفة الفكر جامدة ، يظهر ذلك من موقفها من الحزب الشيوعـي في فلسطين ، والشيوعية بوجه عام ، وعدم استغلالها التناقضات العربية فيمواجهة المؤامرة الاستعمارية الصهيونية في فلسطين ، كذلك لم تحسن استغلال اندفاعـات الشعب وانتفاضاته المتتالية فتعمل على تعبئته تعبئة مناسبة وكافية لمجابهـــة الخطر (ولما داهم الخطر ١٩٤٨ لم تفعل القيادة شيئا بل اكتفت باعمال جزئية) ص ١٦٢ ·

واذا تساءل القارىء بعد هذا عن دور الشعب ، وهل كان غائبا عن كل ذلك ، فان الكاتب يبين ، أن الشعب لم يكن غافلا ، وكان يبدو في كثير من الاحيان ان الشعب في جهة والقيادة في جهة أخرى · لقد اتخذ الشعب في رأي الكاتب موقفـا فيه كثير من الصحة والوعي وتمثل ذلك في الغضبات العديدة والغليان، او التوتر او تأييد الثورة المسلحة ، والاشتراك بها · (انفجر عام ١٩٢٩ دون ان ينتظر أمـر قيادته ، ودل هذا الانفجار كذلك على رفضه لسياسة المؤتمرات والاجتمـــاعات ص ٧١) · كذلك كان نشوء بعض حلقات الكفاح المسلح السرية تعبيرا عـن نقمة جماهيـر الفلاحين والعمال على تهافت القيادات واستهتارها (وكانت حركة القسام ابلـغ رد على سياسة زعماء فلسطين التقليديين ص ١١٨) · وكان الشعب في كثير من المواقف او القضايا يسبـق قادته فلا تكاد تلحق به فقد اندفعت الجماهير الى الثورة ١٩٣٦ « واصبحت الجماهير في المقدمة والقيادة في المؤخرة ، ولم تستطع القيادة على الرغم من حيوية الحاج امين وفعاليته ، أن تلحق بالجماهير » ص ١٢٧ ·

هذه الامور التي يقرها الكاتب يعترف بانها لم تعط ثمارها لان هذا الشعب لم يكن واعيا ، « اما شعب فلسطين ، فانه نتيجة ظروف معينـــة ، أهمها غياب تنظيـم ثوري واع وفعال ، واستئثار طبقة الزعامات والوجاهات بقيادته ، لم يع خطر المعركة التي يخوضها تماما » ص ١٧٣ ، لهذا فقد كان يندفع اندفاعات عفوية مرتجلة ، تنتهي في معظم الاحيان بالاجهاض او الاحتواء ·

الا ان السبب الرئيسي الذي جعل الشعب يسكت في معظـــم الاحيان عن قادته او يسمح بالتلاعب بمصيره ، او ينقاد لهم يرجع الى طبيعـة التناقضات والصراع الذي عاشته فلسطين في هذه الفترة ، (كما مر سابقا) · كانت القيادة قادرة على احتـواء حركات الشعب واجهاضها كمـا حدث في اضراب ١٩٣٦ وثورته ومكنت القيادة من توجيه الشعب الى الاتجاه الذي تريده · لقد كان هم الجماهير غير المنظمة او الواعية متجها الىالصهيونية او الانتداب فظلت انالوعظ والضغط قديفيدان فياصلاح القيادات ولم تنظر الى المسألة على انها خيانة واضحة فطالبت في اكثر من مرة او مؤتمر بوحـدة الكلمة ، وأملت في ان (يثوب) الزعماء الى رشدهم ، وهذا هو الذي مكن هـــؤلاء من ان يمنعوا انهيارهم وانكشافهم وسهلت لهم التظاهر بالوطنية والسيطرة علـــى جماهير الفلاحين والعمال ·

الفصل الاخير في الكتاب او ما اسماه(دروس التجربة) لخص آراءه المثبوثة هنا وهناك وعرض في مقدمة ذلك مواقف الدارسين لهـــذه المرحلة في محاولتهم تقييمها